الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة 08 ماي 1945 قالمة

كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب عربي

الأستاذة: إيمان حراث

المستوى: سنة ثالثة ليسانس

تخصص: دراسات أدبية

الأفواج: (1+2+3)

المحاضرة الخامسة:

الرواية في المغرب

أولا: نشأة الرواية المغربية

إذا كانت نشأة الرواية والقصة القصيرة بالمشرق العربي قد سبقت نشأة القصة القصيرة بعقود، فإن وضع الرواية المغربية يعد مختلفا، إذ نشأت متأخرة عن القصة القصيرة والسيرة الذاتية. وهذا الأمر جعلها تعيش في تطورها وضعا إشكاليا يتمثل في وقوعها تحت سلطة أشكال سردية ذات مرجعيات مختلفة أبرزها: الرواية المشرقية والقصة القصيرة، والسيرة إضافة إلى السرد الطويل التقليدي المتمثل بشكل خاص في أدب الرحلة.

ولعل من أبرز مظاهر هذا الوضع الإشكالي الذي ميز نشأة الرواية المغربية أن الأعمال السردية الطويلة الأولى في المغرب ظهرت في صيغة سير ذاتية، ومنها: "في الطفولة" لعبد المجيد بن جلون 1957م و"جيل الظمأ" لمحمد عزيز الحبابي 1967م و"سبعة أبواب" لعبد الكريم غلاب 1965م.

وفي هذا السياق يقول أحمد المديني متحدثا عن الظهور المتأخر للرواية المغربية وما يطرحه من خضوعها للنموذج للمشرقي: إذا كانت القصة القصيرة في المغرب قد تصدرت الأجناس الأدبية المعروفة... فإن الرواية، على العكس من ذلك، تظل جنسا أدبيا طري العود طري المراس، غير خاضع لوتيرة منتظمة في تطوره... وبالنسبة للرواية المغربية تبدو الورطة أكبر ما دامت تمثل العطب المزدوج: عطبها الخاص المتعلق بنشأتها، وعطب تقليدها للرواية المشرقية التي قلدت بدورها رواية "الغرب".

ويرجع كل من عبد الله العروي وحسن الوزاني سبب ظهور الرواية المتأخر في الأدب المغربي إلى تأخر نشأة الطبقة البورجوازية التي تعبر الرواية عن انشغالاتها، لكونها "ملحمة البرجوازية" حسب تعبير جورج لوكاتش، عكس القصة التي تعبر عن انشغالات الفئات المهمشة. وفي هذا الإطار يقول حسن الوزاني: ساهمت التحولات الاجتماعية التي طبعت فترة الأربعينيات والمزامنة لنهاية الحرب العالمية الثانية في خلق جانب من شروط ظهور الرواية المغربية وارتبطت التحولات تلك من جهة بتغير البنية السوسيو- مهنية وبتطور هامش الأطر المثقفة داخلها، ومن جهة أخرى بانبثاق برجوازية مغربية بالمدن الكبرى "كفاس". وقد تضافرت عوامل متعددة، قبل الخمسينيات وخلالها، أدت إلى نشأة الرواية في الأدب المغربي، لعل أبرزها تطور الكتابة القصصية القصيرة وظهور أشكال جديدة من القصة الطويلة أهمها القصة التاريخية والرحلة التي حققت بعض التطور منذ الثلاثينيات، فكانت ممهدة للانتقال إلى الكتابة

الروائية، مثلما تجد في رحلة ابن المؤقت المراكشي، إضافة إلى بعض التحولات الاجتماعية التي شهدها المغرب والمتمثلة في توسع قاعدة المثقفين وتطور بنية النشر وبداية ظهور البرجوازية.

ويمكننا، من خلال تتبع نشأة الرواية واستوائها نوعا أدبيا قائما بذاته وتتبع تطورها الفني في الأدب المغربي، رصد ثلاث مراحل أساسية تعد محطات فاصلة في مسيرتها، هي: مرحلة التأسيس والمرحلة الواقعية ومرحلة التجريب، لكن ما يجب الإشارة إليه أن الحديث عن هذه المراحل مشوب بكثير من الحذر في الفصل بينها، بسبب التداخل الذي نشهده بينها، إذ أننا نجد امتدادا لمرحلة في مرحلة أخرى. ولعل هذا ما دفع بعض الباحثين، ومنهم أحمد اليبوري (الكتابة الروائية في المغرب) إلى الحديث عن اتجاهات للرواية المغربية بدل الحديث عن مراحل. ولهذا فإن تقسيم تطور الرواية إلى مراحل يستند أساسا إلى الاتجاه الغالب في كل فترة زمنية، دون أن ينفي ذلك وجود اتجاهات أخرى في الفترة نفسها.

❖ المرحلة الأولى التأسيس:

تمثلها الأعمال الروائية المبكرة التي تمتد من الخمسينيات إلى منتصف الستينيات. ويمكن النظر إلى رواية "وزير غرناطة" التي صدرت سنة 1950م لعبد الهادي بوطالب بداية لهذه المرحلة وتأسيسا للكتابة الروائية بالمغرب بعد الأعمال "شبه الروائية" خلال الثلاثينيات والأربعينيات، على حد تعبير أحمد اليبوري، كالرحلة المراكشية لابن المؤقت و"الزاوية" للتهامي الوزاني.

فالرواية، إذن، مبنية على وقائع من تاريخ المغرب والأندلس ومن حياة الشاعر والوزير لسان الدين بن الخطيب. وهو ما يجعلها تجمع بين الكتابة التاريخية والكتابة السيرية. غير أن الكاتب يضفي عليها بعدا تخييليا يبعدها عن مجال السيرة الغيرية ويقربها من مجال الرواية، يتمثل في بعض الأحداث العجيبة التي تحكيها العجوز التي تتولى السرد في بداية الرواية. وهذا البعد التخييلي هو الذي يجعل "وزير غرناطة" أول رواية في الأدب المغربي الحديث. لكنها رواية تحمل بعض سمات البدايات وأبرزها مزج التاريخي بالخيالي والسيري بالروائي. وهي سمات لم تسلم منها الرواية العربية نفسها في بداياتها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد استمر حضورها في الرواية المغربية بعد ذلك بفترة قبل أن تتمكن من تأسيس كيانها الخاص بها.

وقد شهدت الخمسينيات وبداية الستينيات ظهور روايات أخرى أهمها في "الطفولة لعبد المجيد بن جلون و"سبعة أبواب" العبد الكريم غلاب.

هكذا، إذن، يمكن النظر إلى هذه الأعمال الثلاثة: "وزير غرناطة" و" في الطفولة" و "سبعة أبواب" بوصفها أعمالا تأسيسية في تاريخ الرواية المغربية. وبسبب طابعها التأسيسي فهي تحمل سمات عدم وضوح خصائص النوع الروائي، حيث تجمع بين الواقعي والخيالي، وبين التاريخي والروائي والسيري وإن كانت في الطفولة" أكثر تميزا لانتمائها الواضح إلى نوع السيرة الذاتية.

هذه الخصائص مجتمعة جعلت الرواية المغربية موسومة بعدم النضج النوعي، إذ طغى عليها الطابع الإحالي والميل إلى ما هو واقعي وما له صلة مباشرة بحياة الكاتب / السارد ، أو غيره، فجاءت الكتابة الروائية ممتزجة بالكتابة السيرية بنوعيها الذاتي (سبعة أبواب في الطفولة والغيري (وزير غرناطة). وهذا ما نلمسه بشكل واضح في رواية "سبعة أبواب" التي تقف على حدود نهاية هذه المرحلة الأولى من تطور الرواية المغربية، حيث يتخلى السارد/ الكاتب في كثير من الأحيان، عن مهمة سرد الأحداث ليضمن الرواية تعليقات يقدم من خلالها وجهة نظره الخاصة، كما في قوله: فالنوم انصراف عن عالم الحياة بكل مباهجها ومآسيها. وإذا كانت الحياة محببة إلى النفس، فكثيرا ما تشتاق النفس كذلك إلى التخلص منها إلى عالم آخر فيه لذته وشقاؤه ... عالم الأحلام.

كل هذا جعل البداية الحقيقية للكتابة الروائية بالمغرب تتأخر إلى مرحلة الستينيات وإلى ما بعد منتصفها بشكل خاص، لتفصلها بذلك فترة طويلة عن بداية نظيرتها المشرقية. وهو ما يطرح مشكلة أصالة هذه الرواية كما تحدث عنها أحمد المديني.

❖ المرحلة الثانية: المرحلة الواقعية

تمثل رواية مبارك ربيع امتدادا لرواية الخمسينيات والستينيات، لعودتها إلى الماضي الاستعماري ومعالجتها قضايا بعيدة عما كان المجتمع المغربي يعيشه من تحولات واضطرابات، فإن مرحلة السبعينيات قد شهدت ظهور جيل من الروائيين الذين انتقلوا بالرواية المغربية إلى المرحلة الواقعية التي تستمد فيها مادتها الإبداعية من واقع الإنسان المغربي، وتتجاوز ذلك لتعبر عن رؤية نقدية لهذا الواقع.

وكان في مقدمة هؤلاء : محمد زفزاف ومحمد شكري اللذان أصدرا عمليهما الروائيين الأولين، وهما على التوالي : "المرأة والوردة" و"الخبز الحافي" سنة 1972م. وقد صنف محمد شكري عمله على أنه سيرة روائية. وهي تقدم صورة تتضمن نقدا لاذعا للمجتمع المغربي وتناقضاته من خلال سيرة تمزج الواقعي بالخيالي وتلامس قضايا مستمدة من المعاناة اليومية للإنسان المغربي كالرشوة والفساد والمخدرات والجنس...

ففي رواية "المرأة والوردة" يروي زفزاف عن شاب هاجر إلى أروبا بحثا عن الحرية التي افتقدها في المغرب، وذلك بعد لقائه بصديق له من المهاجرين حكى له عن الجنة الأروبية وبعد تحقيق حلم الهجرة يصبح الغرب فضاء لتجسيد الحرية وممارستها عبر علاقة البطل بالمرأة، التي تمثلها في الرواية صديقته سوزي.

وتثير الرواية جملة من القضايا ذات الصلة بالواقع الاجتماعي المغربي، ومنها:

1. ثنائية الشرق والغرب وذلك من خلال المقارنة بين المغرب بوصفه مكانا للفقر والجوع وفقدان الحرية، والغرب بوصفة مكانا للحرية والكرامة، إذ تحضر هذه المقارنات في الرواية عن طريق استرجاع البطل (الذي يتولى مهمة السرد أيضا) أجزاء من حياته الماضية في المغرب ومقابلتها بما يعيشه في أروبا.
2. حياة المهمشين حيث بعد موضوع الإنسان الفقير والمهمش تيمة مركزية للكتابة السردية عند زفزاف، وهو ما تجلى لديه بشكل مبكر من خلال روايته الأولى هاته، إذ يرتبط بحياة المهمشين وإثارة القضايا التي ترتبط بحياتهم كالمخدرات والجنس الهجرة.
3. قضية الحرية: يثير زفزاف في روايته موضوع الحرية الفردية، سواء من خلال ممارسات البطل السارد أو من خلال إثارة موضوع الإلحاد والثورة على الدين والتقاليد، إذ تبدو هجرته إلى أروبا محطمة لكل المعتقدات السابقة التي تعد عنده تقييدا لحريته الفردية.

وبهذا تكون الرواية في هذا الجانب نموذجا لبداية المرحلة الواقعية التي تمتاز بإثارة مواضيع اجتماعية جديدة لم تكن مطروقة في روايات المرحلة السابقة، كما تمتاز بانتقاد الأوضاع الاجتماعية التي ميزت المرحلة.

ويمتاز الجانب الفني للرواية بجملة من الخصائص نوجزها فيما يلي:

1. تنويع أساليب السرد والرؤية السردية، مع تراجع دور السارد العليم الذي يميز السرد التقليدي، وذلك عن طريق، المزج بين وضعية الراوي المشارك (الذي يهيمن على سرد معظم فصول الرواية) ووضعية الراوي المفارق غير العليم، الذي يروي عن غيره (روى محدثي في زمن غابر ما يأتي: هذا العصر عصر جمع المال... وأقول لك إننا محظوظون في أروبا أكثر مما نحن عليه هنا في الدار البيضاء. هنا تسيّرنا أقلية بيضاء ...). وهو ما يعني تنويعا في الرؤية السردية وفي أسلوب السرد.

2. اللغة البسيطة التي تتحول في كثير من الأحيان إلى العامية (قل لي أما زلت تنخدر؟ أريد أن أقول: هل ما زلت تكم الكيف؟) وهنا ستشهد لأول مرة توظيف العامة المغربية في الحوار والتخلى عن صفاء اللغة الفصح، بشكل يعكس الأوضاع الاجتماعية للشخصيات ويعد محاكاة للغة الواقعية التي توظفها شخصيات الرواية بوصفها نماذج اجتماعية.
3. كثرة المفارقات الزمنية المتمثلة خاصة في الاسترجاع الذي يتذكر السارد من خلاله حياته في المغرب (في سنوات معينة، سنوات منطبعة كحد السكين في ذاكرتي وقلبي كنا نعاني من الجوع الشديد والفقر).

والخلاصة أن هذه الخصائص المضمونية والفنية، إن كانت تسم أعمال زفزاف السردية في مختلف مراحلها، سواء أكانت روائية أم قصصية، فإنها تمثل في الوقت نفسه نقطة تحول في الرواية المغربية نحو مرحلة ترتبط فيها ارتباطا وثيقا بواقعها الاجتماعي، وتعمل في الآن نفسه على تجديد أساليبها في الكتابة السردية.

وهكذا، ومن خلال النظر في أبرز الأعمال الروائية التي تنتمي إلى المرحلة الواقعية ما بين (منتصف الستينيات ومنتصف السبعينيات) يمكننا استخلاص جملة من الخصائص الموضوعية والفنية التي تسم الكتابة الروائية خلال هذه المرحلة: فعلى مستوى الموضوع أثارت الرواية المنتمية إلى هذه المرحلة قضايا جديدة ظهرت في المجتمع المغربي مع تفاقم الأوضاع الاجتماعية واتساع الهوة بين الفئات الفقيرة والفئات المحظوظة، وأهمها:

1. طرح قضايا المهمشين كالفقر والأمية والمخدرات والجنس والهجرة... مثلما نجد في روايتي: "المرأة والوردة" لمحمد زفزاف و "الخبز الحافي" لمحمد شكري
2. الموضوع الوطني، الذي طرحه غلاب في "دفنا الماضي" وكان له امتداد إلى ما بعد هذه المرحلة في "الريح الشتوية" المبارك ربيع.
3. صراع الأجيال، الذي يتجلى بوضوح في روايتي جيل" "الظماً للحبابي و"دفنا الماضي" الغلاب.
4. ثنائية الشرق والغرب وهو موضوع تجسده بوضوح رواية المرأة والوردة . ويعبر عن وعي بالهوة الحضارية الشاسعة التي تفصل بين المغرب، بوصفه جزءا من الشرق، وأروبا التي صارت تمثل حلما لكثير من المغاربة الباحثين عن الخبز أو الحرية. وهو موضوع يستحضر ما طرح في

بعض الروايات المشرقية ك "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح و الحي اللاتيني" لسهيل إدريس.

وعلى مستوى أسلوب الكتابة الروائية يمكن إجمال أبرز الخصائص فيما يلي:

1. الانتقال الواضح نحو الكتابة الروائية بمفهومها الغربي، إذ أصبحت الكتابة الروائية أكثر تميزا و"تجنسا"، وأضحت أكثر استقلالا عن الكتابة السيرية التي نجدها في أعمال من قبيل "وزير غرناطة" و "سبعة أبواب" و "دفنا الماضي". وهذا ما جعل الكتابة الروائية أكثر نضجا من الناحية الفنية، مع أن البعد السيري للكتابة الروائية ظل حاضرا في بعض الأعمال كروايتي زفزاف وشكري.
2. الاهتمام بالمضمون الاجتماعي والقومي على حساب الشكل ويعود ذلك إلى هيمنة الوعي الاجتماعي لدى الروائيين المغاربة، وإلى رؤيتهم الجديدة للكتابة الروائية بوصفها وسيلة لتحرير المجتمع والتعبير عن هموم المقهورين. وهذا الأمر سيشهد تحولا في المرحلة التالية التي تبدأ من منتصف السبعينيات، حيث سيصبح الشكل غاية تُبتغى من الكتابة الروائية لدى فئة من الروائيين الذي خاضوا غمار التجريب من خلال تجربة "الرواية الجديدة".
3. اللغة البسيطة القريبة من الواقع والمعبرة عن هموم الطبقات المهمشة وتطلعاتها وهي تحضر في مجمل الأعمال التي تمثل الاتجاه الواقعي في الرواية المغربية.

❖ **المرحلة الثالثة: المرحلة التجريبية (الرواية الجديدة)**

يمكن تحديدها زمنيا من منتصف السبعينيات إلى وقتنا الحاضر. وتعود تسميتها بالمرحلة التجريبية إلى ما حققته الرواية المغربية خلالها من تجاوز في أساليب الكتابة الروائية. لكن من المهم أن نشير إلى أن بداية هذه المرحلة لا تعني انتهاء الرواية الواقعية التي ظلت حاضرة في المشهد الروائي المغربي بعد ذلك، وما تزال ويمكن النظر إلى الرواية الواقعية التي نشأت في المرحلة السابقة، على أنها "اتجاه" إبداعي يستمر في فرض حضوره أكثر مما هي "مرحلة" منتهية ولهذا فإن حديثنا عن "المرحلة التجريبية" في الرواية المغربية يعود إلى التوجه البين لعدد كبير من الروائيين نحو الاهتمام بالشكل الروائي أكثر من اهتمامهم بمضمونه، دون أن ينفي ذلك عن هذه الرواية ارتباطها الوثيق بالواقع وإثارتها قضايا اجتماعية وسياسية مختلفة.

وقد تضافرت في هذه المرحلة عوامل مختلفة ثقافية واجتماعية وقومية أدت إلى نشأة الرواية المغربية الجديدة وظهور تيار التجريب فيها، وأبرزها:

1. ظهور الرواية الجديدة بفرنسا مع كتاب أمثال ألن روب غريبي وميشال بوتور وناتالي ساروت. وقد كان للتعليم الفرنسي وانتشار اللغة الفرنسية دور في سرعة تأثر الرواية المغربية بهذا الاتجاه الجديد القائم على كسر قواعد السرد التقليدي.
2. ظهور الرواية الجديدة بالمشرق بتأثير من الرواية الجديدة الغربية، مع كتاب أمثال صنع الله إبراهيم وإدوار الخراط وحيدر حيدر ...
3. انهيار المشاريع القومية العربية بعد توالى الهزائم أمام الاحتلال الصهيوني، وخاصة بعد هزيمة 67، وبعد حرب 73.
4. خيبة أمل المثق المغربي بعد الحصول على الاستقلال بفعل تفاقم الأزمات والفوارق الاجتماعية وهيمنة الحكم الشمولي، والتضييق على الحريات، وتبخر الآمال في تحقيق المشاريع التنموية والديمقراطية.

والخلاصة أن الرواية المغربية قد تمكنت منذ منتصف السبعينيات من تحقيق قدر من التطور على مستوى كل من الشكل والمضمون، وذلك بفعل تراكم التجارب الروائية وتنوعها وتباين اتجاهاتها، فكانت تجربة الرواية الجديدة من أهم التجارب التي وسمت هذه المرحلة. لكن التكوين المتأخر لهذه التجربة وللكتابة الروائية بالمغرب عامة، والذي ساهمت فيه كل من الرواية المشرقية والرواية الفرنسية الجديدة مازال يطرح أسئلة تتعلق بأصالتها ومزاوجتها بين النزوع نحو التجديد والتجاوز، وبين الاستجابة لشرط الإبداع الذي بدونه تفقد الكتابة الروائية قيمتها.

المراجع المعتمدة

1. أحمد المديني، الأدب المغربي الحديث
2. حسن الوزاني، الأدب المغربي الحديث
3. حميد لحمداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع.